# انهاء دورات العنف

هيلينا كوبان *

■ كم مضى من الوقت على دورة العنف الحالية بين الفلسطينيين والاسرائيليين؟ ١١٠ أعوام؟ ٥٥ عاماً؟ ٣٠ شهراً؟ اسبوعان؟ يمكن للمرء ان يختار نقطة البدء المفضلة كما يشاء. لكن ما يهمني هو الشروع بالتفكير في كيف يمكن لكل الاطراف أن تفلت منها.

نعم، استمرت بالتأكيد وقتاً أطول بكثير مما ينبغي. ونعم، يوجد بالتأكيد عدم تماثل هائل وكبير بين جيش مدجج بالسلاح وفتاك لدولة غنية وتحظى بدعم قوي، وبضعة اشخاص يحملون قنابل معبأة بمسامير ولا يمثلون جزءاً من جهاز دولة، ويتعرض المجتمع حولهم لإفقار منهجي وتسحق مؤسساته «الوطنية» كلها تقريباً. لكن نعم، حان الوقت بالتأكيد لأن نفكر في كيف يمكن انهاء هذا العنف.

هل يمكن ان ينهى بـ«قهر» احد الطرفين للآخر بالقوة؟ كلا! فمهما حلم الصقور في اسرائيل مثل رئيس الاركان موشي يعالون بأن «يحفر في وعي» الفلسطينيين ان عليهم الاذعان لكل إملاء اسرائيلي، من الواضح ان هذا لا يوشك ان يحدث. ولكن في المقابل، مهما حلم المتشددون على الجانب الفلسطيني بـ«تحويل اسرائيل الى خراب مشتعل» فإن هذا ايضاً لا يوشك ان يحدث.

كيف يمكن للكتلة الحرجة من صناع القرار ذوي الصلة على طرفي نزاع ما أن تتوصل الى ادراك انها لا تستطيع ان «تقهر» الآخر بالقوة، وان يحدث هذا على كلا الجانبين في وقت متقارب لدرجة تسمح ببدء تفاوض جدي؟

وكيف يمكن، في حال بدء تفاوض جدي، ان يُضمن له النجاح في تحقيق سلام مستقر؟

في اعقاب التجربة المخيبة تماماً والمأسوية اجمالاً لعملية «اوسلو»، يكتسب هذا السؤال الأخير أهمية بالغة. فلا أحد قطعاً يريد تكراراً لمسار اوسلو المبهم والمأساة التي آل اليها. ويبدي الزعماء والناس على كلا جانبي «الخط الأخضر» – على نحو يمكن تفهمه – حذراً شديداً من الانجرار الى هذا السيناريو مرة اخرى. (باستثناء ممكن وحيد هو ابو عمار الذي لم ينس ابداً، حسب اعتقادي، الاحساس المنتشي بالاعتداد بالنفس الذي بدا ان عملية اوسلو منحته إياه. لكن احساسه الشخصي بالفخر ليس سوى هامش كئيب لهذه الرواية، لا كما يريدنا ان نصدق، بانها كانت الاطار الرئيسي للرواية ذاتها.)

× × ×

قبل شهر تقريباً، عدت الى منزلي في فيرجينيا بعدما امضيت خمسة اسابيع في افريقيا، درست خلالها كيف نجحت، او لم تنجح، ثلاثة بلدان هناك (موزامبيق وجنوب افريقيا ورواندا) في الإفلات من دورات العنف المزمنة في الفترة بين مطلع تسعينات القرن الماضي ومنتصفها. وتوصلت الى انه في موزامبيق وجنوب افريقيا، حيث كانت هناك تسويات سلمية عبر التفاوض، حقق كلا البلدين نجاحاً مدهشاً. لكن في رواندا، حيث نجح أحد الطرفين – «القوات الوطنية الرواندية» – في «قهر» الطرف الآخر في ميدان القتال، لم يحقق السلام الذي نجم عن ذلك نتائج طيبة.

ان الانتصار في ميدان القتال لا يؤدي دائماً الى سلام متين! يكفي ان تنظروا الى الاميركيين في العراق...

كان البحث الذي اجريته في افريقيا على مدى سنتين الى ثلاث سنوات مفيداً جداً في الواقع اذ سمح لي ان انظر الى النزاع الاسرائيلي – الفلسطيني بطرائق جديدة ومختلفة. يحب الفلسطينيون والاسرائيليون على السواء النواح قائلين ان «لا أحد ابداً عانى شيئاً فظيعاً في الحياة مثل معاناتهم». وهذا ببساطة غير صحيح.

حملة ابادة مريعة؟ عانت اقلية التوتسي في رواندا في الواقع حملة ابادة اسوأ، من اوجه كثيرة، بالمقارنة مع معاناة اليهود في اوروبا. على مدى ١٠٠ يوم في ١٩٩٤، كان معدل القتل في رواندا حوالي خمسة اضعاف معدل قتل اليهود في اوروبا خلال المحرقة. قُتل آنذاك ٨٠ في المئة من التوتسي في رواندا. لكن من بقي منهم على قيد الحياة واقرباءهم الذين عادوا الى بلادهم من سنين طويلة في المنفى حالما تسلّمت «القوات الوطنية الرواندية» السلطة، يحاولون ان يجدوا وسيلة للتعايش بشكل قابل للاستمرار مع الهوتو الذين ما يزالوا يتفوقون عليهم عددياً بنسبة ستة الى واحد تقريباً.

نفي، وتشريد، واعمال قتل على نطاق واسع، وإفقار جماعي، واغتيالات؟ الفلسطينيون ليسوا قطعاً الشعب الوحيد في التاريخ الذي عانى هذه الويلات، التي عانت منها شعوب كثيرة استعمر اراضيها الأوروبيون. عانى السود في جنوب افريقيا، بشكل خاص، هذه المعاملة على مدى ٤٠٠ – ٥٠٠ سنة من المستعمرين الاوروبيين عموماً، وعلى مدى ١٢٠ عاماً من مالكي المناجم الانكليز، وعلى مدى ٥٠ عاماً من «الافريكانيين» الناطقين باللغة الهولندية الذين انشأوا البنية المؤسسية لنظام الفصل العنصري في ١٩٤٨ بدلاً من الدخول في اي شكل للحكم الديموقراطي.

وخلال سبعينات وثمانينات القرن الماضي، جرى تشريد مئات الوف السود في جنوب افريقيا ودفعهم الى المنفى عندما اطلق نظام البيض «معركة حتى النهاية» ضد ما ادعى انه «هجوم شامل» ضده من قبل جيرانه الافارقة السود. وفي سبعينات القرن الماضي، لجأ نظام الفصل العنصري الى تصدير حربه بشراسة، فشن عمليات عسكرية ضخمة في عمق اراضي ناميبيا وانغولا وموزامبيق لترهيب هذه البلدان واجبارها على الاستسلام. واطلق هذا النظام في الوقت نفسه حملة كبيرة من الاغتيالات ضد زعماء السود الوطنيين داخل البلاد وخارجها. كما انه واصل، بالطبع، عملية مصادرة الارض والموارد، المستمرة منذ قرون، من السكان الاصليين.

لكن في النهاية وافق نظام الفصل العنصري على عملية تفاوض أدت، في ١٩٩٤، الى تأسيس ديموقراطية كاملة تقوم على قاعدة صوت واحد لكل مواطن في ارجاء البلاد. يا لها من معجزة! يرغب الناس الآن في القول بانها كانت معجزة تحول بلا عنف من نظام استبدادي الى ديموقراطية. حسناً، لقد كان تحولاً عبر التفاوض. لكن التفاوض لم يبدأ الاّ بعد عقود كثيرة من سفك دماء شنيع. (كما ان المؤتمر الوطني الافريقي ذاته لم يكن تنظيماً نابذاً للعنف بالكامل. فقد كان لديه جناح مسلح، «اومكونتو وا سيزوي»، الذي تولى قيادته لفترة من الوقت نلسون مانديلا بالذات.)

بالاضافة الى ذلك، فان مهمة ضمان تكافؤ الفرص وحرية الوصول المتكافىء الى الموارد بالنسبة الى كل مواطني جنوب افريقيا، ومعالجة آثار بعض عمليات سلب الاراضي وغيرها من الموارد التي جرت على امتداد قرون من الحكم الاستعماري، ما تزال قائمة. ومع ذلك، كان التحول في ١٩٩٤ في جنوب افريقيا خطوة هائلة الى امام، وهي خطوة تقدم للبعض دروساً تستحث التأمل. ما هي العوامل التي ادت، اولاً وقبل كل شيء، الى اقناع الطرفين بالتفاوض، ثم سمحت لهذه المفاوضات بأن تنجح؟

وجّهت هذا السؤال الى اشخاص كثيرين التقيتهم في جنوب افريقيا. وكان أحدهم الدكتور فاني دو تويت، وهو من الاثنية الافريكانية ويشغل حالياً منصب نائب مدير مؤسسة مهتمة بصنع السلام مقرها في كاب تاون. كان جوابه ان ما سمح للتفاوض ان يبدأ، ثم ينجح، في جنوب افريقيا هو بشكل اساسي ثلاثة عوامل.

اولاً، كانت هناك على الجانب الافريكاني براغماتية عميقة ادت، في النهاية، الى اقناع حتى بعض الافريكانيين المتشددين تماماً بأن من الافضل التفاوض مع المؤتمر الوطني الافريقي بدلاً من توريط البلاد وجرها الى مستنقع النزاع وسفك الدماء. قال «كان هناك بعض المتشددين الذين جادلوا بأنه ينبغي للافريكانيين ان يتراجعوا الى دولة صغيرة جداً خاصة بهم بدلاً من تقاسم السلطة في البلاد كلها. لكن حتى هؤلاء توصلوا، في النهاية، الى انه سيكون افضل أن يبقوا جزءاً من الكل و«يحفظوا الكعكة كبيرة» بدلاً من المجازفة بجعل النزاع المستمر يدمر الكعكة كلها».

ثانياً، على جانب المؤتمر الوطني الافريقي، كانت هناك نزعة براغماتية لا تقل قوة تغلغلت عميقاً في ايديولوجية المؤتمر الوطني الافريقي. فعندما بدأت محادثات مانديلا مع رئيس الوزراء دي كليرك في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٩٩، كان المؤتمر الوطني الافريقي اكد التزامه منذ عقود عدة وضعاً نهائياً غير عنصري في جنوب افريقيا، بينما كان بعض التنظيمات القومية الاصغر ما يزال يتكلم عن «سلطة السود». وكان قبول الفكرة القائلة بأنه ينبغي لمواطني جنوب افريقيا من البيض ان يتمتعوا بحقوق متكافئة كاملة في جنوب افريقيا اللاعنصرية التي يجري السعي الى بنائها عنصراً مهماً في براغماتية تفكير المؤتمر الوطني الافريقي. وكانت المؤتمر يضم نشطاء من البيض على مستويات كثيرة في تنظيمه وبنيته القيادية. (تحدثت مع احد قادته، ألبي ساكس، اثناء وجودي هناك. وكان – مثل عشرات غيره من قادة المؤتمر الوطني الافريقي – هدفاً لمحاولة اغتيال دبرها نظام بريتوريا، لكنه نجا من الموت بعدما فقد ذراعه اليمنى.)

العامل الثالث الذي اشار اليه د. فاني دو تويت هو «مستوى الانضباط العالي بشكل استثنائي داخل المؤتمر الوطني الافريقي». وقد رأيت بعض الادلة على ذلك اثناء وجودي هناك. كان المؤتمر الوطني الافريقي تنظيماً يطبق المركزية ويمتاز بالتفاني، ونجح دائماً تقريباً في التحدث بصوت واحد.

واشار اشخاص آخرون تحدثت اليهم الى عوامل اخرى. كان من بين ما لُفت اليه مراراً حقيقة انه بحلول ١٩٨٩ بدأ الافريكانيون يشعرون بضغوط كبيرة من الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية تدفعهم الى التفاوض.

وحالما بدأ دي كليرك المحادثات مع مانديلا – الذي كان آنذاك أمضى ٢٧ عاماً في السجن! – تحرك بسرعة مدهشة لاطلاقه والسماح للمفاوضات بشأن عملية الانتقال بأن تمضي قدماً. وخرج مانديلا من السجن في شباط (فبراير) ١٩٩٠. واعقبت ذلك مفاوضات مكثفة وصعبة في احيان كثيرة. واستمرت البلاد تعاني اعمال عنف فظيعة (كان بعضها ما يزال من تدبير نظام الفصل العنصري). لكن بحلول ١٩٩٣، توصل الطرفان – وكانت اطراف اخرى كثيرة انضمت اليهما آنذاك – الى اتفاق الوضع النهائي الذي اعطى التفويض باجراء انتخابات ديموقراطية تماماً في نيسان (ابريل) ١٩٩٤.

لاحظوا انهما لم ينشغلا بأي «اتفاقات موقتة»... لا يزال امام جنوب افريقيا، كما اشرت، شوط طويل قبل تحقيق مساواة حقيقية بين كل مواطنيها. لكن التأمل في العوامل المختلفة التي سمحت بحدوث هذا التحول الرائع في ١٩٩٤ شيء مفيد. كم نرى من العوامل المماثلة او المشابهة في النزاع الفلسطيني الاسرائيلي؟ واذا كنا لا نراها موجودة الآن، كيف يمكن التفكير بتعزيزها؟ هذا، قرائي الاعزاء، ما استناوله في مقالة اخرى.

* مالكة وناشرة موقع الانترنت www.justworldnews.org

# تحديات السلام بعد قمتي شرم الشيخ والعقبة

عبد الله الأشعل *

■ في الظروف الفارقة التي ترتسم خلالها ملامح عصر يمضي وعصر آخر يبدأ، تدق مسؤولية الكاتب والمفكر الذي يدرك يقيناً مدلول هذا التحول. ولذلك فإني أزعم أن قمتي شرم الشيخ والعقبة ترسمان ملامح عصر جديد، وحتى يكون هذا العصر منصفاً للعرب فلا يجوز أن يتهيب الكاتب، أياً كان موقعه، من تقديم رؤيته شهادة لعصره، أو نصيحة لحاكمه، او قولة حق في زمن طغت فيه أنواء الباطل. ومنطقي في ذلك أن مستقبل هذه المنطقة ملك لشعوبها اليوم وغداً، فلا يملك أحد، أياً كان موقعه أيضاً، وأياً كان ظنه حسناً، أو ظن رأيه وموقفه حسناً، أن يصادر على الحق في رأي الآخر ورؤيته.

النقطة الأساسية في تحليلنا هي أن أي تصور لسلام المنطقة مهما حسنت النيات يظل تصوراً نظرياً، ولا يمكن أن ينجح تصور يأخذ في اعتباره فقط موازين القوة ويغفل حسنات العدل. وما دام السلام يعني المنطقة العربية بأسرها فلا بد أن يكون سلاماً عادلاً شاملاً لا جزئياً ولا مائلاً ضد الطرف الضعيف.

قد يرى البعض أن واشنطن ضمنت إسرائيل ضماناً لا رجعة فيه، بينما ضمنت الأطراف العربية الجانب الفلسطيني، وكان موضوع الضمان واضحاً. فهو في حالة إسرائيل أن تقبل قيام دولة فلسطينية بحلول العام ٢٠٠٥ وأن تتخذ القليل من الخطوات والإجراءات التي تظهر بها حسن نيتها تجاه هذا الهدف النهائي. أما في حالة فلسطين فإن الجانب العربي ضمن مساندة رئيس وزرائها في مكافحة الإرهاب الذي عبر عنه البيان العربي بأنه موجه ضد الإنسانية، وأن استئصاله لا مفر منه لمصلحة السلام، ولا يجوز تبرير الإرهاب أو التماس الأعذار له مثل الاحتلال أو غيره.

ومعنى ذلك أن القمتين تصورتا أن تاريخ الصراع العربي – الإسرائيلي اختزل في أنه صراع بين معسكر السلام، وهو أصلاً إسرائيل ثم انضم اليه من اهتدى من الأطراف العربية، في مقابل معسكر الإرهاب، أي كانت المقاومة سواء كانت سياسية أو عسكرية لركيزة هذا النوع من السلام، وهي القوة العسكرية الإسرائيلية وتجلياتها في العدوان والاحتلال والإبادة. وهذا التصور يعني أن إسرائيل كانت دائماً على حق وأنها ظلت تهدي العصاة إلى السلام.

والحق أن أحداً لا يعارض السلام، كما أن أحداً لا يحب الإرهاب، ولكن معنى السلام ومعنى الإرهاب وأطرافه ومضامينه هي التي تحدد المواقف. ومن الواضح أن إسرائيل والعرب لم يتفقوا على المصطلحات بدقة. وسبق أن أشرت في مناسبات عديدة إلى أن السلام عند إسرائيل، هو تماماً ما شرحه رئيس وزرائها أرييل شارون في كلمته في قمة العقبة يوم ٢٠٠٣/٦/٤ عندما أكد أن السلام الدائم يتطلب إشاعة الأمن الدائم، وأن هذا الأمن الدائم هو الذي يؤدي ويفرز السلام الدائم لإسرائيل وحدها.

هذا المفهوم الإسرائيلي لعلاقة الأمن بالسلام هو الذي يطغى على نظرية إسرائيل التي ترى العالم كله من خلال الهاجس الأمني الذي بلغ عندها حداً مخيفاً، فبالغت في معناه ومتطلباته وربطت ربطاً لا فكاك منه بين هذا المفهوم للأمن وبين الوجود نفسه. وطبيعي أن يبدأ شارون كلمته الموجزة الدقيقة بأن مسؤوليته المطلقة هي تأمين الشعب اليهودي والدولة اليهودية وأن يؤمّن بوش على ذلك بضمان من حكومته ومنه شخصياً لأمن إسرائيل. وقد قبل شارون خريطة الطريق كما فهمتها وقبلتها إسرائيل أي بتحفظاتها التي تدور أصلاً حول نقطة واحدة، وهي أمن إسرائيل، حتى إن الدولة الفلسطينية الموعودة من وجهة نظر شارون يجب أن تكون دعماً لأمن إسرائيل ورفاهيتها.

وتقبل واشنطن تماماً نظرية الأمن الإسرائيلي كما طرحها شارون بما يترتب عليها من نتائج وأهمها: النتيجة الأولى، أن يسمح لإسرائيل بكل أنواع الأسلحة بينما يحرم ذلك على الدول العربية، لأن إسرائيل هي التي تشعر بالخوف رغم تسلحها، ولهذا أكدت إسرائيل رسمياً أن النظر في ترسانتها النووية وأسلحة الدمار الشامل لديها لن يصل إلى حد التخلص منها، كما انه يعتمد على مدى شعور إسرائيل بالأمن الناجم عن شيوع السلام في المنطقة التي تحدد هي حدودها والدول الداخلة فيها. ومعنى ذلك أن السلام الذي تريده إسرائيل هو ذلك النوع الذي يشعرها بالأمن، ولا علاقة لهذا النوع من السلام بما تراه الاطراف الأخرى. ولذلك فإن تسلح أي دولة في هذه المنطقة بالمفهوم الإسرائيلي هو مخالف لشروط السلام ومهدد له.

النتيجة الثانية، أن كل من يعارض أو يقاوم التصرفات الإسرائيلية من احتلال وغصب واغتيال وإبادة بالقول أو بالفعل يعتبر من مهددات الأمن الإسرائيلي، وبالطبع تأتي المقاومة الفلسطينية على رأس هذه المهددات. وهي لذلك، ونظراً إلى جسارتها وخطورتها على النظرية الإسرائيلية، تجاوزت درجة التهديد وأصبحت جزءاً من صلب الهاجس الأمني لأنها صادرة من صاحب الحق الشرعي في الأرض، فدخلت دائرة أشد خطراً هي دائرة الإرهاب. وهذا النوع من الإرهاب هو الذي تراه إسرائيل مهدداً للسلام بالمعنى الذي تريده. وتعظم أوجه التهديد الذي تمثله المقاومة كلما كانت نابعة من أصول وطنية ودينية، وكلا العاملين تهديد للمعطيات الصهيونية رغم إصرار إسرائيل على أصولها ونقائها الديني. فاستمرار المقاومة ضد الاحتلال هو اكبر معوق للسلام، وهو إرهاب لا يحتمل ولا بد من قمعه أولاً، والعمل بدلاً منه بالطرق الودية والسلمية، كما جاء في كلمة «أبو مازن» التي عبرت عن تعاطفها الكامل مع آلام الشعب اليهودي، وقطعت وعداً بوقف المساهمة الفلسطينية في إستمرار هذه الآلام، وذلك بالتصدي الحازم والنهائي للمقاومة المسلحة، تدعمه في ذلك قرارات شرم الشيخ والبيانات العربية.

أما المفهوم العربي الذي كان سائداً حتى قمة شرم الشيخ للسلام، فهو إعادة الأرض والحقوق العربية إلى أصحابها وتطبيع العلاقات مع إسرائيل بقدر ما تحتمل هذه العلاقات، لأن التطبيع وإن كان هو مقابل الإنسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية، وتسوية كل القضايا المعلقة، وأولها القدس، فإنه في الواقع لا يمكن أن يكون نمطياً ولا إلزامياً ما دام الاحتلال غير مشروع، فزواله لا يجوز أن يكون مقابل مكافأة وهو التطبيع مع المحتل السابق، وإلا كان ذلك خرقاً لقاعدة قانونية ظلت محترمة منذ عهد الرومان وهي أن المخطئ لا يجوز أن يستفيد من خطئه. وأظن أن هذا هو أيضاً المفهوم العربي حتى الآن. فكيف يمكن التوفيق بين هذا المفهوم العربي، وذاك المفهوم الإسرائيلي القائم على أمن إسرائيل وحدها وبالمفهوم الإسرائيلي وحده؟ هذا ما يثير قضية الإرهاب والمقاومة في المفهومين العربي والإسرائيلي. فماذا يقصد العرب وإسرائيل والولايات المتحدة بالإرهاب المطلوب مقاومته؟ إن بيانات القمتين لا تترك مجالاً للاجتهاد في أن هناك نوعاً واحداً مقصوداً وهو العمليات الفدائية الفلسطينية المقاومة و«المعوقة» لجهود السلام وللاحتلال وأعمال الإبادة الإسرائيلية، فهذه هي التي يجب أن تتوقف وأن تحل منظماتها وتجرم أعمالها في الماضي والحاضر والمستقبل وتجفف مصادر تمويلها وأسلحتها. والمنطق الذي يقوم عليه هذا الموقف هو أن هذه المقاومة هي إرهاب ضد إسرائيل لا فرق في ذلك بين مقاومة للاحتلال أو مهاجمة لأهداف داخل إسرائيل ولا فرق بين أهداف المقاومة ضد الاحتلال، ولا ذلك التمييز الذي طالب به البعض بين أهداف عسكرية وأخرى مدنية. فما دامت موجهة ضد إسرائيل الرمز والمبنى والمعنى بصرف النظر عن الاحتلال وسياساته المبرمجة لصيانة أمن إسرائيل، فهي إرهاب يجب التحالف ليس فقط لوقفه وإنما أيضاً للاعتذار عن المواقف العربية «الساذجة والمراوغة» والتي تؤكد التمييز بين المقاومة ضد الإحتلال، وبين أعمال الإرهاب، فهذا التمييز في حالة إسرائيل بالذات تمكين «للإرهاب» ضدها، أما ما يقوم به جيشها ومستعمروها يومياً فهو جهاد مقدس لإعلاء أمن إسرائيل الذي قالت عنه كونداليزا رايس أنه يهم العالم بأسره.

ومعنى ذلك أن معسكر «السلام بالمعنى الإسرائيلي» يجب أن يتصدى «للإرهاب الفلسطيني» مهما كانت ذرائعه.

وحتى لا يؤدي هذا المفهوم الخاطئ لقمتي شرم الشيخ والعقبة إلى إحباط أخلاقي وانفجار في قاعدة القيم ومنطق الأشياء وانفجار على الأرض، فإن واشنطن تستطيع إن أرادت أن تحقق لنا جميعاً السلام والأمن، وذلك بأن تبدأ إسرائيل، وهي المعتدية والمبادئة بالكف عن سياسات الإبادة ضد الفلسطينيين، فلا يكون للمقاومة معنى، وتتوقف من الطرفين الأعمال العدائية ثم يستمر تنفيذ بقية الإلتزامات، وهي الإنسحاب والتفاوض ورفع العنت عن الفلسطينيين والإقرار لهم في المفاوضات بحقوقهم كشعب عانى طويلاً دون مبرر أو سبب، وأن يظل معنى المقاومة للاحتلال قيمة أخلاقية ووطنية. أما منظمات المقاومة، فهي وإن نشأت في ظروف الاحتلال، وعملت على مقاومته، وقاست كل ما قاست في سبيل الحرية، فيمكنها إن أرادت أن تتحول إلى أحزاب وقوى سياسية يضعها الشعب في المكان الذي يريد في الدولة الديمقراطية الفلسطينية. إنني أحذر من خطورة الإنقلاب على القيم التي يجب أن تظل محل اعتزازنا، فإذا كان لا بد أن نتعلم من إسرائيل، فانظروا أين تضع من انخرطوا في عصابات بناء الدولة وقاتلوا حروبها ضد العرب حتى تصبح إسرائيل بقوتها هي التي تملي إرادتها، وأن تلبس بالقوة كل شئ ثوب الحق. ونحن، رغم وضوح حقوقنا نوشك أن يمتد السرطان إلى مخزن القيم عندنا، فنتنكر للمناضلين من أجل حريتنا، ونمجد غيرهم.

في أي حال هذه لحظات حرجة في تاريخ الأمة تضطرب أمامها الأشياء بسبب ما تعانيه وقد حدث ذلك لها ولغيرها من الأمم، وواجب المثقفين المخلصين من أبنائنا أن ينبهوا إلى ما أشار إليه الميثاق الوطني المصري عام ١٩٦٢ من أن آلافاً من شباب مصر قرأوا تاريخها الوطني على غير حقيقته، فصور لهم الأبطال في تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغموض بينما وضعت هالات التقديس والاكبار من حول الذين خانوا كفاحها.

وخلاصة القول إن السلام العادل لا يزال ممكناً، وان المقاومة رد على الاحتلال، فليبدأ السلام بزوال الاحتلال وهو أعلى صور الإرهاب، لا أن يتجه الجهد لإسكات المقاومة فيكون سلاماً مكرساً للاحتلال والإبادة لن يقدر له النجاح أو الدوام.

* كاتب مصري.

## اللعبة الجهنمية

■ بعد قليل من دعوة العاهل الأردني امام «المنتدى الاقتصادي» الى إحراز «تقدم ملموس» في السعي الى تنفيذ «خريطة الطريق» كانت فرقة اسرائيلية خاصة تدخل الى الخليل بهدف محدد: اغتيال عبدالله القواسمة، أحد قادة «حماس»...

وبذلك برهن ارييل شارون كيف يمكن إحراز مثل هذا التقدم غير عابئ بالطريق ولا بالخريطة. وفي الوقت الذي كان مجرم الحرب رئيس الوزراء يمتدح العملية، مؤكداً الاصرار على القتل والمزيد من القتل، اهتدى وزير الخارجية الاميركي الموجود في الاردن، الى صيغة لـ«تهنئة» شارون اذ قال ان هذا الاغتيال يجب ان لا يوقف «جهود السلام». اي سلام، وأية جهود؟

قبل ذلك، تحديداً يوم الجمعة، كان هناك بحث عن «هدنة»، وقيل ان اسرائيل تعهدت وقف الاغتيالات، وكان هناك تفاوض فلسطيني ـ فلسطيني، وآخر فلسطيني ـ اسرائيلي على مستوى أمني، بغية إرساء تلك الهدنة. وصل كولن باول الى المنطقة بلهجة جديدة: ضغط على الجانب الفلسطيني، وتأييد للنهج الاسرائيلي. طارت الهدنة، لأن تعهد شارون كان كاذباً في أي حال، لكنه انتظر وصول باول لتصبح الكذبة واقعاً يتخذ «شرعيته» من المباركة الاميركية. في ذلك اليوم ايضاً هدم الاسرائيليون منزلاً فلسطينياً آخر احتفالاً بوصول باول.

إما أن الاميركيين (والاسرائيليين) نالوا من الوعود والتعهدات العربية ما يجعلهم يبدون على هذا الصلف وتلك الوقاحة، وإما انهم اكتشفوا قدرات كامنة لدى الجانب الفلسطيني لكنه يحجم عن استخدامها لذا ارتأوا الضغط عليه ليفعل. انهم يدفعون «ابو مازن» وحكومته الى التحرك من دون ان تهتم بمخاوفها، ولعلهم يقيسون الأمور على الحدث العراقي، بمعنى ان الحرب الاميركية حصلت واحتلت وسيطرت من دون ان يسجل أي رد فعل مقلق في العالم العربي. ومؤدى ذلك فلسطينياً، ان الحكومة مدعوة للإجهاز على المقاومة من دون ان تتخوّف من مخاطر اندلاع حرب أهلية. اما ترجمة ذلك، عملياً، في نظر الاسرائيليين والاميركيين، فهي ان تأخذ الاجهزة الفلسطينية لوائح شارون ـ موفاز وان تبادر الى اعتقال او اغتيال الاشخاص الواردة اسماؤهم فيها لتبرهن انها جدية في «وقف العنف». واذا لم تفعل فما عليها سوى السكوت عن الاغتيالات التي تنفذها عصابات اسرائيل.

هذه وصفة قديمة متجددة تظهر ان تمييز الاسرائيليين والاميركيين بين «ابو مازن» و«ابو عمار» لا معنى له، فكما احرقوا هذا يريدون احراق ذاك بحثاً عن بديل مستعد لتنفيذ تلك الوصفة مهما كانت نتائجها. وكما في كل مرحلة فالانحياز الأميركي هو الذي يصنع الفارق. ولا يبدو ان واشنطن قادرة على الخروج من السياسة التي أسرها شارون فيها، بدليل انها لم ترَ داعياً لتغيير مغزى تأييدها المطلق لشارون عما كان قبل «خريطة الطريق»، ولم تعترف بعد بالاسباب التي أفشلت المساعي السابقة مع ادراكها التام لها. فما أطاح «خطة تينيت» وسواها هو في طريقه الى إطاحة «الخريطة» والخطط المنبثقة منها. وطالما عوّلت واشنطن على «حسّ المسؤولية» عند «دولة» اسرائيل إلا أنها لم تدرك ان رهانها هذا ضرب في العدم.

حتى لو توفر لدى الجانب الفلسطيني اقتناع كامل بأن المصلحة تقضي بركوب مخاطر الخيار الذي يدفعه اليه الاسرائيليون والأميركيون، فإن هؤلاء لا يقدمون اليه اي ضمانات، لا للحاضر ولا للمستقبل. وبالطبع، لا يتوقع الفلسطينيون اي حسن نية من جانب الاسرائيليين، ولكنهم في المقابل لم يحصلوا من الجانب الاميركي ما يؤكد انه بات يعاملهم كشعب مع ما يعنيه ذلك من احترام واعتراف بالحقوق. فهو لا يرى سوى «بؤرة ارهاب» يجب القضاء عليها بمعزل عن اي شيء آخر. انسوا «خريطة الطريق» فهي مجرد ورقة زئبقية، قد تكون يوماً عنوان الحل لتصبح يوماً آخر بلا اي قيمة، تستطيع «الرباعية» ان تتحدث عنها بأعلى صوتها وتستطيع ان تصمت اذا لم تجد قبولاً اميركياً. فالولايات المتحدة هي مصدر «الشرعية» الوحيد لـ«الخريطة»، وهذه الشرعية منحازة إلى طرف ضد طرف. أصلاً فقدت الخريطة زخمها بقبول ادارة بوش شروط اسرائيل، وهذه الشروط جعلت «الخريطة» لائحة التزامات مطلوبة من الفلسطينيين مقابل لا التزام من جانب اسرائيل.

من يتحرك أولاً؟ شارون اعطى الجواب، فهو يرسل فرقة خاصة لتغتال رجلاً فلسطينياً، واذا ردت «حماس» تصبح هي المذنبة. ففي نظر باول وسواه في واشنطن يجب ان لا تردّ «حماس» بل ان ترحّب، ويجب ان لا تستاء حكومة «ابو مازن» بل ان تساعد. هذه هي اللعبة الجهنمية التي ينجح شارون يومياً في تسويقها، طالما ان هناك في ادارة بوش من لا يزال مستعداً لقبولها للاستمرار في «جهود السلام» كما يسميها باول.

عبدالوهاب بدرخان

## احتلال و... احتلالات

■ يخطىء العرب المعارضون للسياسات الاميركية في الشرق الاوسط إذ يتهمونها بممارسة التضليل والكذب لتبرير الحرب التي استهدفت إطاحة نظام صدام حسين. يخطئون لأنهم، في انتقادهم واشنطن، يتصرفون كأن إكتشاف المقابر الجماعية والادلة على الجرائم ضد الانسانية، التي مارسها النظام المخلوع ضد شعبه، وشعوب جيرانه، لا تعني شيئاً بالنسبة اليهم. فالكشف عن حقيقة ان صدام حسين نفسه كان أخطر سلاح للدمار الشامل مسألة جانبية في نظرهم، لا تبرر إطاحته وتخليص العراقيين وجيرانهم منه ومن عصابته.

مفهوم ان يستخدم الحزب الديموقراطي المعارض في اميركا مسألة التضليل والكذب لشن حملة سياسية ضد الادارة الجمهورية. فالمسألة تتعلق بالصدقية، علماً بأن الديموقراطيين ايدوا، وبأثر رجعي، إطاحة نظام صدام، بعدما تكشفت الجرائم التي ارتكبها ضد الانسانية. ومفهوم ايضاً ان يتهم العرب الادارة الاميركية بعدم التحرك سريعاً لملء الفراغ الذي خلفه سقوط النظام العراقي، وعدم الاسراع في إقامة حكومة عراقية انتقالية. إلا ان محاولة نزع الشرعية السياسية للحرب ليس إلا محاولة مبطنة لتبرير ما ارتكبه النظام المخلوع تحت غطاء الحرص على الصدقية والقانون الدولي.

في اجتماعهم الاخير في بيروت، رفض البرلمانيون العرب ادانة جرائم صدام حسين، رغم الادلة الدامغة على مسؤوليته ونظامه عن ارتكابها. ولعل ذلك يعكس مدى تمثيل اولئك «النواب» لشعوب تبدو كأنها لا تمانع في ان ترتكب الانظمة التي تحكمها مجازر جماعية بحقها! هل هي مصادفة ان اياً من الحكومات العربية لم يعلن ادانته جرائم صدام حسين؟

مشكلة بعض العرب انه لا يفهم، او لا يريد ان يفهم، أن تهمة ازدواجية المعايير، التي اعتاد العرب على توجيهها الى الولايات المتحدة في ما يخص اسرائيل والفلسطينيين، تنطبق عليهم قبل غيرهم. وإلا فما معنى ادانة جرائم شارون ومناصريه في اميركا والسكوت عن جرائم صدام ومناصريه العرب؟

الحال هو ان لا صدقية لمن لا يريد ان يرى إلا بعين واحدة. فالعرب يريدون تحرير العراقيين من الاحتلال الاميركي، والفلسطينيين من الاحتلال الاسرائيلي، لكنهم لا يتحدثون عن شعوب عربية يعيش بعضها في ظل ظروف اسوأ من الاحتلال. فالعراقيون، تحت الاحتلال الاميركي، يستطيعون اصدار الصحف بالعشرات، ومن دون ترخيص من سلطة الاحتلال، ويستطيعون التظاهر وتوجيه اقسى الانتقادات لحكامهم الاميركيين، من دون خوف على حياتهم. اين هي الدولة العربية التي تسمح بإصدار صحيفة من دون ترخيص؟ اين يستطيع موظفو دولة عربية التظاهر مطالبين بزيادة اجورهم من دون تعرضهم للضرب والتنكيل والاعتقال؟ والحال هو ان الاحتلال الاميركي للعراق سينتهي في يوم من الايام، ولا بد ان ينتهي. وكذلك الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية. ولكن من ينهي الاحتلالات الاخرى في عوالمنا العربية؟

قبل نحو مئتي عام، أي ما يقارب عمر الولايات المتحدة، نشر عبد الرحمن الكواكبي كتابه «طبائع الاستبداد»، وتحدث فيه عن اهمية الحرية في نهوض المجتمعات العربية وتطورها. وقال: «اخشى ما يخشاه الحاكم المستبد، هو ان يعرف الناس أن الحرية اهم من الحياة».

لم يكن الكواكبي اطلع في حينه على الدستور الاميركي وفقرته الاولى التي تنص على عدم جواز اصدار الكونغرس اي قانون يحد من حرية التعبير. وبعد قرنين من كتاب الكواكبي والدستور الاميركي، يتحدث الواقعان الاميركي والعربي عن نفسيهما.

سلامة نعمات

الحياة AL HAYAT
أسسها كامل مروة عام ١٩٤٦
رئيس التحرير: جورج سمعان
Editor-in-Chief: George Semaan
رئيس التحرير المساعد: غسان شربل
نائب رئيس التحرير: عبد الوهاب بدرخان
مديرا التحرير: زهير قصيباتي
عبدالله اسكندر
المدير العام: روبير جريديني
■ المكتب الرئيسي (لندن):
KENSINGTON CENTRE, 66 HAMMERSMITH ROAD, LONDON, W14 8YT
– التحرير: الهاتف: 020-76029988 الفاكس: 020-73714215 / 020-73714225 التلكس: 925746
– الادارة العامة: الهاتف: 0207-6029988 الفاكس: 0207-6024963 التلكس: 925751
– التوزيع: الهاتف: 0207-6052123 0207-6052122 الفاكس: 0207-6024514
■ مكتب باريس: 162 Rue du Faubourg Saint Honore 75008 - PARIS Tel: 42 25 9204 Fax: 42 25 9217
■ مكتب بيروت: الوسط التجاري – شارع المعرض – مبنى د